أخي الشيخ ...

قصة بقلم الدكتور سهيل ادريس

حين خرجت من المدرسة ، بعد ظهر ذلك اليوم ، كنت اوشك ان اعدو في الطريق عدوا. ولكني حين بلغت منعطف الشارع الرئيسي في حينا ، تمهلت في سيري ، خشية ان الفت الي الانظار ، واثير الهمسات . والواقع اني كنت اشعر بضيق شديد ، كلما بلغت ذلك الشارع . فقد كان اقل ما يتوجب علي هو ان احكم الحجاب على وجهي ، وان اترصن في مشيتي . وما كان لي ان انسى تعليمات ابي وتوصياته في ذلك . بل هو قد نصحني يوما ان اتجنب المرور في ذلك الشارع ، وان أسلك زقاقا جانبيا ضيقا يفضي بي الى المدرسة ، ولكني شكوت من ان ذلك الزقاق نتن موحش ، فأعفاني ابي من سلوكه ، غير انه عاد يتشدد في ان التزم كل حدود الحشمة والرصانة حين ابلغ شارع الحي ، حتى انتهى بي الامر الى الاحساس بعبء يثقلني كلما انعطفت في ذلك الشارع ، اذ كنت مضطرة الى التباطؤ ، فيما انا شديدة الرغبة في الاسراع والاختفاء .

وبعد ظهر ذلك اليوم بالذات ، كنت اشد رغبة في الاسراع ، لابلغ البيت . وقد وضعت يدي على الجرس ، ولم ارفعها عنه الا بعد ان فتحت امي الباب حانقة مزمجرة، فبادرتها بلهفة :

ـ هل عاد سامي ؟

وسرعان ما نسيت غضبها ، فتهلل وجهها ، فصحت بها اسألها :

ـ هل نجح ؟

فأومأت برأسها ايجابا ، واضافت انه خرج في الثالثة بعد الظهر ولما يعد ، فاذا الفرحة تستخف بي فلا ادري ما افعل ، غير ان ارتمي على امي اشبعها تقبيلا ، وانا اردد « حبيبتي امي .. حبيبي سامي »!

انك لا تستطيع يا سامي ان تدرك مدى سعادتي بنجاحك .. انني اتمثلك الان يا اخي منكبا فوق طاولتك، تطالع وتدرس وتبذل نور عينيك للكتاب ، محاولا ان تستدرك بأي ثمن ما فاتك من الدراسة الرصينة وانت في المشيخة . وكم دخلت امنا الغرفة عليك فألفتك نائما فوق الكتاب تحتضنه ! وكم كانت تلاقي من المشقة لاقناعك بالنهوض الى سريرك ! كان ما صممت عليه يا اخي فوق ما يحتمله شاب مثلك ، وما كان احد ليصدق انك مستطيع ان تستكمل في عام جميع ما هو مطلوب في برنامج الدراسة الثانوية . ولكنك لم تلق بالا لاحد ، وانصرفت الى كتبك لا تكاد تغادر غرفتك .. اتذكر يا سامي يوم جئتك ،فقرأت في عينيك الاجهاد ،ورجوتك ان تشفق على نفسك ، ثم الححت عليك في ان نخرج الى النزهة على شاطىء البحر ، ولكنك رفضت وقلت لي في كآبة :

ـ اسمعي يا هدى ! انت تعرفين اني قضيت خمسة اعوام ، وانا سجين هذا البيت بفضل المشيخة .. ولكن اطلاق سراحي مرهون بأن ابقى سنة اخرى في هذا السجن .. ولا بد ان تكون سنة جد وتعب وتحصيل .

ثم ابتسمت يا سامي ، فشعرت ان وراء بسمتك اسى هو اكبر من ان يعرفه من كان في سنك . كان اسى اكبر منك يا عزيزي . ولقد تركتك لشأنك وانا ازداد تعلقا بك . وكم كنت بحاجة الى معونتك في دروسي ، ولكني كنت أوثر الا اضايقك ، فقد كان حسبك ما انت فيه . وها انت تنجح الان يا سامي ، والعقبى لي في العام القادم ! انني اعتز بك يا اخي ، ولا بد ان تعتز بي انت ايضا حين افوز بالشهادة، ونتابع معا دراستنا الجامعية .

وسمعت امي تناديني الى قاعة الاستقبال ، فعدوت اليها فاذا بي اجدها واقفة في وسط القاعة ، وعلى وجهها سيماء الشرود . حتى اذا رأتني ، ترددت قليلا قبل ان تشير بسبابتها الى المشجب ، فرأيت جبة سامي وعمته معلقتين عليه . وعدت اصيح فرحة :

ـ هل عاد ؟ اين هو ؟

ولكنها سارعت تجيب :

ـ بل لقد خرج اليوم .. بدونهما !

وندت شهقة صغيرة من صدري ، على غير ارادة مني ، ثم تمتمت :

ـ لكن لماذا فعل ذلك ؟

وادركت سريعا انه لم يكن لسؤالي معنى . كنت اعرف ان سامي سيفعل ذلك ، وانه انما كان ينتظر امتحانه . فهو مصمم على مواصلة دراسته العالية ، وهو يعتقد ان الجبة والعمة تحولان دون ذلك . غير اني اعرف ان هذه حجة غير مقنعة ، وان هناك اسبابا اخرى . ومع هذا ... فاني ادرك الان سبب سهوم امي واساها . انها تتنبأ بموقف ابي . انها ترقب العاصفة ، وهي تقترب هادرة .

وما كان أحد منا ليجرؤ على ان يخبر ابي ، حين ادركنا ، بغموض ، نية سامي بخلع الزي الديني الذي يرتديه منذ ست سنوات . لقد كان ابي شيخا معتما ورعا ، وكان يؤم المصلين في مسجدين كل يوم ، وكنا نعرف انه هو الذي دفع سامي الى المشيخة دفعا ، وانه كان يعتز به ايما اعتزاز ويجده خير خلف له . ولسنا ندري من اين فهم ذات يوم ان سامي ينوي التخلص من الجبة والعمة ، فاذا بسورة من

الغضب تجتاحه فتهتز منها اطرافه ، وينبعث الشرر من عينيه ، ويتهدد ويتوعد بانه يعرف كيف يرد سامي الى الطريق المستقيم . ولكن امي تبذل قصارى جهدها في تهدئته ، وفي انكار ما نمي اليه ، وهي تعلم انها تخفي عنه الحقيقة ، ثم تقنعه بالا يفاتح سامي بذلك ، فان هذا لم يخطر له على بال ...

ولكن اني لامي اليوم ان تنكر الواقع ، وكيف لها بتهدئة ابي هذا المساء ؟ انها لا شك توجس خيفة من لقائه بسامي، ولعلها تود لو ان اخي لا يعود ، بعد ان انفصل عن هاتين الجبة والعمة اللتين كان ابي يفخر بارتداء مثلهما ...

ولكن سامي عاد ، وكانت في عينيه نظرات جديدة لم نألفها فيهما . وكانت اول كلمة نطق بها انه سأل عما اذا كان ابي قد رجع، فلم نفهم اكان سؤاله يعبر عن خشية من عودته، ام استعجال لها . وسأله اخي الاكبر فوزي ، وكان قد عاد من عمله :

ـ اين كنت حتى هذه الساعة ؟

فنظر اليه سامي نظرة تنم عن زهد بالكلام ، ولكنه ما لبث ان اجاب بهدوء :

ـ كنت اتنزه قليلا هنا وهناك ..

ثم استطرد قائلا :

ـ ام انه لا يحق لي ذلك من غير ان استأذنك ؟

فاخذتنا الدهشة لهذه اللهجة التي تكشف عن رغبة في المجابهة كنا نعرف نقيضها عند سامي تجاه فوزي ، فقد كان يفضل ان يتحاشى الاصطدام به . ولعل فوزي حاول عبثا آنذاك ان يضبط اعصابه ، فقد انفجر في اخيه قائلا :

ـ انا اعرف انك تركب رأسك دائما .. ولكني مع ذلك اسألك كيف خرجت بلا جبة ولا عمة ؟

وزادت دهشتنا من هدوء سامي ورباطة جأشه ، فقد اكتفى بان قال ، بكل سكون :

ـ ان هذا امر لايعنيك!

ثم نهض فخرج الى الشرفة . اما فوزي فقد اخذ يكز على اسنانه ويحرق الارم ثم يتمتم حانقا :

ـ سنرى ان كان هذا يعنيني ام لا

وما لبثنا طويلا حتى سمعنا اذان العشاء من مئذنة المسجد الذي كان ابي يؤدي فيه الصلاة ، وهو غير بعيد عن منزلنا، فادركنا ان عودة ابي اصبحت وشيكة .

ولكنه تأخر تلك الليلة ، على غير عادته . ولقد رأينا امي تنهض وتدعونا الى النوم فيكون اخي الاصغر وسيم اول من يلبي الدعوة ، ويقصد غرفتنا وهو يترنح من النعاس . ثم تتبعه اختي سامية ، فلا اجد الا ان الحق بهما ، ويقوم فوزي ، فيطوف بالبيت ليطفيء النور قبل ان يدخل غرفته. وقد تساءلت ، ولا شك في ان الجميع تساءلوا مثلي ، عما قد يحدث حين يدخل سامي تلك الغرفة نفسها لينام ؟ لقد خشيت ان يتبادل مع فوزي عبارات قاسية اخرى تفضي بهما الى ان يتماسكا بالايدي ، كما حدث مرة ، ويكون سامي هو الخاسر من دون ريب . على اني حمدت لسامي ان يبقى واقفا على الشرفة لا يريم ، كأنما كان مصمما على ان يساهر الليل .

ودق جرس الباب فجأة . وحين انبثق النور في المدخل التفت فرأيت امي وجميع اخوتي منتصبين على ابواب غرفهم كأنهم لم يغمض لهم جفن . الا فوزي ، فقد رأيناه يسرع الى الباب فيفتحه ، ويبادر ابي بلهجة تحد واستفزاز :

ـ تفضل فانظر ما فعل ابنك « الشيخ » اليوم !

ودخل ابي وعلى وجهه علامات التساؤل وهو يقول :

ـ خير ان شاء الله ...

وكان سامي قد دخل من الشرفة ، فاتجه الى الباب ، والقى السلام على ابي بكل هدوء ، ثم التفت الى فوزي وقال له :

ـ كان الافضل ان توفر ذلك على نفسك ، فانني ساخبر ابي ، انا نفسي ، بما قلت ...

وما كاد يفرغ من عبارته، حتى فوجئنا جميعا بصوت اخي الاصغر وسيم يرتفع ثاقبا :

ـ خرج اليوم بدون جبة ولفة !

وانفتل ابي يواجه سامي ، مسائلا ، مضطربا ، حائرا :

ـ ماذا يقول ؟ خرجت اليوم بلا ... لماذا ؟ صحيح اذن ما كنت قد سمعته .. لقد كنت اتوقع ذلك . الظاهر انك نجحت في الشهادة ! ولكن هل صحيح انك خرجت بلا ...

وكان رأس ابي يلتفت الى كل منا بدوره ، زائع النظرات، كأنه لا يصدق ما سمع . واجاب سامي وقد بدأ الاضطراب يرتسم على قسماته :

ـ نعم يا ابي .. صحيح .. والواقع ..

غير ان ابي قطع عليه عبارته بان صاح فيه :

ـ تقول صحيح ايها الوقح؟ اغرب من وجهي.. انني لا اريد ان اراك .. ولا ان اسمع ما تقوله !

ولكن سامي قال برباطة جأش :

ـ بل يجب ان تسمعني يا ابي .. ان من واجبك ان تصغي الي

مجموعات « الاداب »

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات الاربع الاولى من الآداب تباع كما يلي :

	غير مجلدة	مجلدة
مجموعة السنة الاولى	٤٥ ل.ل	٥٠ ل.ل
« « الثانية	٢٥ «	٣٠ «
« « الثالثة	٢٥ «	٣٠ «
« « الرابعة	٢٥ «	٣٠ «

وادركنا ان ابي فقد اعصابه حين رأيناه يهجم على سامي فيصفعه على خديه صفعتين قويتين وهو يصرخ فيه :

ـ لعنة الله عليك ايها الزنديق ... انك لا تنكر ذلك ايها المنحط .. هذه الجبة والعمة ...

ثم انقطع فجأة ، وهرع الى المشجب ، فتناول العمة واقبل بها على سامي يقول :

ـ انك لن تخلعها ابدا .. لن تخلعها ايها الشقي ... ستبقى شيخا ايها الضال !

ثم امسك العمة بكلتا يديه ، وحاول ان يضعها على رأس سامي كرها وقسرا . وكان وجه اخي قد احتقن بالدم من أثر الصفعتين ، ومن غضب وحشي كان قد استبد به ولم نعرف مثله عليه من قبل ، فاذا هو يزيح يدي ابي عن رأسه لحظة ، ولكن هاتين اليدين الكبيرتين تغلبانه على امره ، ثم ترتفعان بصفعتين اخريين اعنف واقسى .. واذ ذاك سمعنا صرخة توجع واستنكار تند من فم سامي ، ورأيناه يتراجع الى خلف، ثم يتناول العمة التي كانت قد استقرت على رأسه ويقذف بها ارضا بكل ما ملكت قواه ، ثم لا يكتفي بذلك ، بل ينحني فيأخذها عن الارض ، ويحل المنديل عن الطربوش بسرعة فائقة ، ويحاول ان يمزق المنديل بيديه ، فيعجزه ذلك ، فاذا هو يتناوله بين اسنانه ويعمل فيه تمزيقا وتقطيعا وقد احمرت عيناه وانبعث منهما شرر حيواني غريب ، كأنما هو جماع ما يراكمه في نفسه من غيظ وحنق مكبوتين طوال ست سنوات .. ثم اذا به ينفجر صارخا :

ـ كلا ... بل سأخلعهما بعد اليوم .. ولن ارتديهما ابدا .. لا استطيع ان ارتدي العمة والجبة .. انني اختنق بهما .. اختنق .. اختنق ..

وظل جاحظ العينين يحدق في ابي ، وبين يديه المنديل الابيض وقد تمزق بعض اطرافه . غير ان نظره ما لبث ان التوى ورق حين لحظ ابي وقد بدا عليه ذعر عجيب اذ كان ينقل عينيه بين الطربوش الملقى على الارض، والمنديل الممزق بين يديه. وان هي الا لحظة ، حتى انقذف اخي ، فتناول الطربوش من الارض ، وضم عليه المنديل الابيض بحنو ، ثم ارتمى على يد ابي اليمنى يحاول ان يمسك بها ليقبلها ، ولكن ابي يحول بينه وبينها ، اذ يسحبها ويطويها وراء ظهره وهو يقول :

ـ لا .. لا .. لا اريد ... ابتعد عني !

وينفجر سامي بالبكاء فجأة ، ويقول بصوت لاهث متقطع:

ـ ابي .. اغفر لي يا ابي .. سامحني. انني لم ارد ان اهين عمتي .. لم ارد ان اهين عمتك .. ولكنك صفعتني يا ابي .. صفعتني مرتين .. ابي سامحني ..

واقترب منه مرة اخرى ، محاولا ان يأخذ يمناه ، ولكن ابي ظل على جفائه وتمنعه .

وكانت في عيوننا جميعا دموع . غير ان اخي الاكبر فوزي كان اشدنا تأثرا . فقد رأيناه يدنو متمهلا ، فيمسك بذراع سامي ، ويجذبه اليه بعطف وحنان ، ثم يطوق كتفيه ويدخل به غرفتهما (*)

سهيل ادريس

(*) فصل من رواية جديدة تصدر قريبا .

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني

بيروت - ص.ب ٣١٧٦ - تلفون ٢٧٩٨٣

تعلن عن صدور منشوراتها الجديدة :

الى حضرات اساتذة ومدراء المدارس المحترمين في لبنان والبلدان العربية الشقيقة

قبل ان تقرروا كتبكم للسنة الدراسية المقبلة اطلعوا على السلاسل المدرسية الآتية :

سلسلة الجديد في القراءة العربية ٧ أجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي (الشهادة الابتدائية)
سلسلة الجديد في الأدب العربي ٦ أجزاء لمرحلة التعليم الثانوي (البريفه والبكالوريا)
السلسلة القصصية للطلاب الأدب ٣ أجزاء لمرحلة التعليم الثانوي
سلسلة التربية الصحية في المدارس ٢ جزآن لمرحلة التعليم الثانوي
سلسلة الاشياء والعلوم الجديدة ٥ اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي
سلسلة لتعليم القراءة الانكليزية ٦ اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي
THE NEW DIRECT ENGLISH COURSE
سلسلة لتعليم قواعد اللغة الانكليزية ٦ أجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي
THE NEW DIRECT ENGLISH GRAMMAR
سلسلة لتعليم القراءة الفرنسية ٣ أجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي
MON NOUVEAU LIVRE DE LECTURE ET DE FRANÇAIS
سلسلة الخطوط العربية الجديدة ٥ اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي
سلسلة لتعليم الخط الانكليزي ٥ اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي
NEW SCRIPT AND CURSIVE HANDWRITING
سلسلة لتعليم الخط الافرنسي ٥ اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي
LA NOUVELLE CALLIGRAPHIE FRANÇAISE

هذا ما نقدمه لكم عاملنا هذا ، حضرات الاساتذة والمدرين والمربين الافاضل ... رجاؤنا ان تجدوا فيه ما يساعدكم على المهمة التعليمية الملقاة على عاتقكم ... وفقنا الله واياكم الى ما فيه خير الناشئة

صدر عن دار الكتاب اللبناني

تاريخ العلامة

ابن خلدون

ظهر الجزء الحادي عشر وهو بداية المجلد الثالث